مجلة كلية
الدعوة الإسلامية
مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة - محكمة

العدد
الخامس عشر
1998

1428 من ميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم 1998 أفرنجي

لمحة تاريخية عن الدراسات الإيطالية المعاصرة في ليبيا

علي الصادق حسنين

إن القصد من هذه المقالة هو مجرد إعطاء فكرة موجزة عن بعض الحقائق التي ـ بالنظر إلى قلّة المصادر ـ قد بذلت قصارى جهدي في سبيل جمعها ولمّ شتاتها. ولذا فإنّها ليست ـ بكل يقين ـ خلواً من العيوب: الأمر الذي يستوجب مني الاعتذار سلفاً.

مما لا جدال فيه أن الوجود الإيطالي فوق أرضنا كان ـ بصورة نسبية ـ قصيراً ومع ذلك فقد خلف آثاراً ملحوظة في بعض المجالات من بينها المجال الثقافي الذي رسم له المستعمِر سياسة خاصة حالت دون ظهور عدد كبير من الليبيين المهتمين باللغة والثقافة الإيطالية، ولهم نشاط يذكر في هذا الميدان. فلمن يجهل تاريخنا المعاصر أو كان ملمّاً به إلماماً يسيراً قد تبدو هذه الحقيقة

غريبة متناقضة مع السياسة التي كان يعلن عنها ويتبجح بها النظام الاستعماري الفاشيستي إذّاك في إيطاليا، إذ للوقوف على أسباب ذلك يجب في الواقع سبر أغوار هذا التاريخ الزاخر بالأحداث.

ولكي يتسنى تناول صلب الموضوع لا مناص من تمهيد مقتضب يساعد على تبيّن الظروف التي تمخض عنها هذا الأمر.

ففي الحقيقة كان من البديهي أن تهتم السلطات الإيطالية ـ منذ السنوات الأولى لغزوها البلاد ـ بتأسيس وفرة من المدارس المختلفة النوع والمستوى من أجل تعليم أبنائها، بينما لم تعر الاهتمام ذاته بالليبيين إلاّ في وقت لاحق، حيث عملت على إنشاء ما أطلقت عليها اسم المدارس الابتدائية الإيطالية العربية.

ولمّا مضى نحو ربع قرن من الزمن على الاحتلال عمدت إيطاليا إلى إحداث مؤسسة تعليمية ثانوية بمدينة طرابلس لم تكن لها مثيلة قط في مستعمراتها قاطبة بالنسبة لتعليم السكان المحليين. كانت تدعى هذه المؤسسة «المدرسة الإسلامية العليا» وكان الغرض الظاهر من إنشائها هو إعداد القضاة الشرعيين والموظفين الإداريين والقضائيين ولتكوين المعلمين وتهيئتهم للعمل بالمدارس الابتدائية الإيطالية العربية المشار إليها آنفاً.

إلاّ أن الغرض الحقيقي من تأسيسها قد تجسم في الحيلولة دون هجرة شبابنا إلى القطرين الشقيقين المجاورين مصر وتونس، حيث كان بوسعهم مواصلة دراستهم العليا بشيء من الحرية في جامعتي الأزهر والزيتونة العامرتين اللتين كانتا ـ في اعتبار المستعمر الغاصب ـ مصدري إشعاع إسلامي وإيحاء عربي قومي على جانب من الخطورة.

هذا ولا بد من التأكيد على أن الليبيين قد استهدفوا في عهد الاستعمار لألوان التمييز العنصري وخصوصاً فيما يمتّ إلى التعليم والثقافة بصلة. ولكنهم حاولوا بشتى الطرق والوسائل المتاحة مقاومة تلك السياسة الممقوتة التي ما كانت ترمي إلاّ إلى حرمانهم من حقهم المقدّس في المعرفة مع العلم بأن السياسة المذكورة كانت تهدف أيضاً إلى الاستخفاف بلساننا العربي المبين والتقليل من أهميته وقصر استعماله على الشؤون الدينية فقط.

وعلى أية حال فبحكم مقتضيات المعيشة والاحتكاك المستمر بمن كانوا يقطنون بشتى أنحاء البلاد من الإيطاليين قد أصبح كثير من الليبيين ـ طوعاً أو كرهاً ـ يلمون على نحو متفاوت بالإيطالية إلى جانب لغتهم الأم التي تقلص مجال استعمالها وذلك لأن لغة المستعمر الذي كان يحكم ويشرّع قد تبوأت مكان الصدارة المطلقة.

إن هذا الوضع قد استمر حتى انتشار أحداث الحرب العالمية الثانية التي أدّت إلى انتصار جيوش الحلفاء في الصحراء الغربية ودخولهم مظفرين إلى مدينة طرابلس يوم 23/ 1/ 1943م.

فتبعاً لذلك أخذت اللغة الإيطالية تفقد مكانتها الأولى وتتقهقر أمام لغتي المنتصرين، أي الإنجليزية في طرابلس وبرقة والفرنسية في فزان. وليس من شك في أن الحرب الكونية المومأ إليها آنفاً قد أحدثت تحولاً بالغ الأهمية في تاريخ العالم الثالث بالذات إذ نتجت عنها ظاهرة «تصفية الاستعمار» التي شملت ـ بطبيعة الحال ـ البلدان العربية أيضاً.

ولعله من المفيد ـ بهذا الصدد ـ التنويه بأن الدول الاستعمارية الأوروبية من خلال تطبيقها لمبدأ «فرّق تسد» قد تمكّنت من تشتيت شمل عالمنا العربي الذي تأثرت لهجاته المتعددة بشتى اللغات الأجنبية الدخيلة وأخذت تتطور ـ عبر الزمن ـ كلٍ على انفراد بحيث كاد يتعذّر التخاطب والتفاهم بين الليبي وشقيقه الجزائري أو بين العراقي وأخيه المغربي. وبانتهاء الحرب العالمية الثانية بدأت الأقطار العربية تتمتع بشيء من الحرية في علاقاتها المتبادلة وكانت مصر وقتئذ في مقدمتها جميعاً، لا سيما من الناحية الثقافية مما هيّأ لصحافتها وفنّها القصصي والمسرحي والخيّالي، وهيّأ لمواطنيها أيضاً ـ بصفتهم مدرسين وموظفين إداريين وفنيين وقضاة ـ أن ينفذوا إلى البلدان الشقيقة الأخرى حيث أخذوا وما انفكوا يمارسون تأثيراً جديراً بالاعتبار على شتى اللهجات المحلية مضطلعين ـ على نحو عفوي ـ بدور التقريب أو التسوية بين لهجاتنا العربية المختلفة.

إن هذه العملية العفوية قد تعززت خلال العقود الأخيرة بفضل التعاون الثقافي بين الدول العربية حتى في مجال البث الإذاعي المسموع والمرئي

وكذلك بفضل انتشار الأشرطة المسموعة والمرئية على نطاق واسع. ولكن لا مندوحة لنا من أن نضيف إلى كل ذلك ما تبذله الجامعة العربية من جهود مشكورة في سبيل تنسيق وبالتالي توحيد مناهج التعليم في الدول الأعضاء قاطبة.

أجل، فبعد نيل ليبيا لاستقلالها أصبحت العربية ـ بحكم الدستور ـ لغتها الرسمية: الأمر الذي زاد من قلة شأن اللسان الإيطالي الذي اقتصر تدريسه إذاك على أبناء الجالية الإيطالية بمدارسها القليلة التي بقيت قائمة في ولاية طرابلس فقط حتى سنة 1970.

هذا وجدير بالملاحظة أن ليبيا إذ بلغت نضجها السياسي وصارت دولة مستقلة ذات سيادة كانت لا تملك عدا موارد ضئيلة وكانت مثقلة بعبء من شتى المشاكل. وأسوة بدول نامية أخرى وجدت بلادنا نفسها أمام معضلة مزدوجة كانت تتمثّل في الاضطلاع بتوكيد هويتها القومية كدولة حديثة العهد وباستعادة هويتها الثقافية التي سبق للمستعمر أن تعمد العمل على مسخها وطمسها.

فكان من الطبيعي إذن أن تتبوأ لغة القرآن الكريم مكان الصدارة في الحياة الاجتماعية وفي الشؤون الإدارية لدولتنا الفتية بحيث استلزم الأمر خوض غمار معركة «التعريب الشامل» التي كان من شأنها أن أفقدت ـ بصورة تدريجية ـ حتى اللغتين الإنجليزية والفرنسية مكانتيهما وأهميتهما تبعاً لزوال الإدارتين البريطانية والفرنسية من البلاد.

على ضوء ما تقدم سرده تتجلى دونما التباس ندرة فرص التزود بالعلم والمعرفة التي كانت متاحة لليبيين إبّان عهد الاستعمار الإيطالي.

غير أنّه حريّ بالتوضيح أنّ من بين شبابنا الأكثر حظاً في ذلك العهد لم يتأت إلاّ لقلة قليلة منهم إتمام مرحلة الدراسة الثانوية العلمية أَو الفنية أَو الأدبية بالمدارس والمعاهد المحلية. كما أن عدداً ضئيلاً جداً من هؤلاء المحظوظين استطاعوا الالتحاق بالجامعات في إيطاليا وأن لا خريج منهم قد عنّ له ـ على ما يبدو ـ أن يقتحم ميدان الدراسات الإيطالية.

بعد هذا التمهيد الذي اقتضته الضرورة، أستأنف الحديث عن الموضوع

الرئيس الذي سبقني الأخ الأستاذ خليفة محمّد التليسي إلى تناوله بكفاية وذلك في الندوة الأولى حول «الحضور الثقافي الإيطالي بالأقطار العربية» ـ نابولي، 1980. إن أشهر قواميس اللغة الإيطالية تعرّف لفظة «ITALIANISTA» بأنّها تدل على «الأجنبي الذي يدرس اللغة والأدب والثقافة الإيطالية».

فبناء على هذا التعريف يتعين استبعاد نخبة من أنشط المترجمين الأحياء والراحلين الذين قد يمكن اعتبار بعضهم طلائع الدارسين للغة والآداب والثقافة الإيطالية إذ يسجل لهم الفضل في أن قاموا منذ نحو نصف قرن بأولى محاولات تعريب ليس مجرد شذرات من روائع الأدب الإيطالي فحسب ولكن بعض القصص القصيرة أيضاً مما درجت على نشرها مجلات تلك الحقبة. ومن المؤسف أن المقام لا يسمح بإطالة الحديث عن هذه الفئة وإلاّ وقعت في محظور الخروج عن الموضوع، وحسبي محض استلفات النظر إلى هذه القضية التي تستحق في الواقع البحث على انفراد.

هذا وما دامت تعوزنا المراجع ولحين ظهور ما يناقض زادي الشحيح من المعلومات، فإن الليبيين الذين ينطبق عليهم ـ في تقديري ـ التعريف الوارد أعلاه يعدّون على أصابع اليد ـ كما يقال ـ إذ يمكن حصرهم ـ حسب كبر سنّهم ـ في الإخوان الثلاثة الآتية أسماؤهم:

1 ـ الدكتور وهبي البوري، الذي يعد كاتباً ممتازاً باللغة العربية ويجيد الإيطالية وله إلمام طيب بالإنجليزية والفرنسية. إنه باشر نشاطه كباحث في الثلاثينيات بتحرير مقالات تناول فيها بعض أعلام الأدب الإيطالي نحو دانتي وبيتراركا وبوكّاتشو وأريوسطو وماكيافيلّي وبيراندللو. قد نقل إلى العربية قصة «الليلة الأولى» لبيراندللو الذي رثاه عند وفاته سنة 1936 في مقال مقتضب نشرته مجلة ليبيا المصورة التي كانت تصدر في مدينة بنغازي. ومما يحير حقاً أن الدكتور البوري لم يتعرّض لذكر أسماء مؤلفي بعض القصص الأخرى التي ترجمها مثل «حلم سينكلار» و«الشبح الغريب» و«غلطة قضائية». ومن المعتقد أن جميع أعماله قد نشرت بالمجلة المذكورة. أما أحدث منجزاته غير الأدبية فكان تعريبه لكتاب «الحرب

الليبية» من تأليف مالجيري ونشر الدار العربية للكتاب طرابلس 1980.

2 ـ الأستاذ فؤاد مصطفى الكعبازي، الذي هو من القلائل الذين تلقوا تعليمهم الابتدائي وما فوق الابتدائي بالمدارس الإيطالية المحلية حيث نبغ منذ صباه في اللغة والآداب ومن ثم كان له اهتمام بالدراسات الإنسانية فاستهواه شعر دانّونتسيو الذي صار معجباً به غاية الإعجاب. إنه ذو ثقافة موسوعية فضلاً عن كونه كاتباً وشاعراً وناقداً ومحاضراً نشيطاً باللغتين الإيطالية والعربية. وبينما يتقن الإيطالية إتقاناً نادراً إنه في الحقيقة عصامي بالنسبة للغة الضاد ولكنه قد أثبت مع كل ذلك أنه مستعرب ذو اعتبار. إن مقدرته الخاصة على النثر والنظم بهاتين اللغتين لما يميز شخصيته التي تنصهر فيها قِيَم حضارتين مختلفتين ومعاني عالمين متباينين. إنه يلم إلماماً جيداً باللسانين الإنجليزي والفرنسي كما له إلمام بالتركية والإسبانية.

في سنة 1962 أصدر له الناشر الإيطالي المشهور أرنالدو موندادوري كتاب «Calchi di Poesia Araba Contemporanea» (قوالب من الشعر العربي المعاصر) الذي ينطوي على مختارات من الشعر العربي المعاصر برع هو في نقلها نظماً إلى اللسان الإيطالي. وبعد خمس سنين أصدرت له دار بيروتية للنشر تدعى «الصحافية» كتاباً آخر بعنوان «ألحان عربية على أوتار من الغرب» الذي يشكل دراسة للشعر الأوروبي كان الغرض منها إظهار ما يكتنفه هذا الفن الغربي من آثار عروضية عربية.

وبالإضافة إلى ذلك قد أنجز أعمالاً مختلفة أخرى ما برح ينتظر بعضها النشر من جملتها الترجمة العربية للجزء الأول من كتاب تاريخي عنوانه «Tripolitania Antica» أي «قطر طرابلس في القِدم» من تأليف الكاتب أ. ميريغي (A.MERICHI). إنما أعظم إسهام له يتمثل في ترجمته الإيطالية لمعاني القرآن المجيد التي باشرها منذ 40 سنة وشهد عام 1992م صدور الربعين الثالث والرابع منها علماً بأن أول باكورة من هذا العمل الخطير ـ وهي جزء عم ـ قد تم إصدارها في سنة 1984 على يد جمعية الدعوة الإسلامية التي تبنّت إصدار مشروع الترجمة بأكمله.

3 ـ الأستاذ خليفة محمّد التليسي الذي هو أصغر الثلاثة سناً وهو رجل عصامي ولكنه برهن ـ مع ذلك ـ على أنه ذو مهارة فائقة بصفته كاتباً وشاعراً ومحاضراً وناقلاً نشيطاً حتى عن اللغة الإنجليزية التي يجيدها بالكفاية. إنه صاحب دراسات نقدية قيّمة ومقالات أدبية رائعة وترجمات جيدة لبعض أعلام الأَدب الإيطالي الكلاسيكي منه والمعاصِر نحو لئوباردي وفيرغا وبيراندیلّو وموراڤيا وبابيني وبودزاتي.

قد صدر له سنة 1967 في بيروت كتاب «قصص إيطالية»، الذي يشكل أكبر مجموعة من قصص لويدجي بيراندیلّو تم تعريبها حتى الآن. كما وضع عن هذا الأديب الكبير دراسات شتّى ظهرت في كتاب بعنوان «كراسات أدبية» الذي جاءت مقدمته كناية عن دراسة نقدية وافية.

وعلاوة على ذلك يسجل للأستاذ التليسي فضل كبير في إثراء المكتبة العربية بوفرة من أعمال الكتّاب الإيطاليين المهتمين بتاريخ ليبيا المعاصِر وذلك بعكوفه على تعريبها فنال مجهوده الجبار هذا كل إعجاب وتقدير وثناء. وفي سنة 1984 توج جهوده بوضع قاموس إيطالي/ عربي أصدرته له الدار العربية للكتاب بطرابلس. إن هذا العمل القيّم من شأنه أن يلبّي حاجة شديدة لا سيما في ليبيا ومما يشير إِلى أهميته صدوره في طبعة ثانية عن المكتبة اللبنانية ـ بيروت 1985 واستحقاق صاحبه درجة الدكتوراه الفخرية من جامعة نابولي.

ومن جهة أخرى لا بد من الإشارة إِلى أنه حين كانت معارك الجهاد ضد الغزاة الإِيطاليين على أشدها صدرت ترجمة عربية لكتاب «الكوميديا الإلهية» وهو أروع عمل لأمير شعراء إيطاليا دانتي أليغييري. كان يدعى ناقله عبّود إلياس أبا راشد اللبناني الأصل المسيحي الملة الماروني المذهب الذي استقدمه المستعمر للعمل في بلادنا ـ بصفة مترجم ـ إبّان الحرب العظمى ومنحه الجنسية الإيطالية في سنة 1922. لقد أقام الأستاذ أبو راشد في بادئ الأمر ببرقة التي مكث في ربوعها حتى سنة 1928 حين نال الموافقة على الانتقال إِلى طرابلس حيث أكمل ترجمته الكوميديا الإلهية، التي كان قد شرع في إنجازها سنة 1925 بمدينة درنة. ويخبرنا الناقل في المقدمة التي صدّر بها الجزء الأول (الجحيم) أن عمله

قد نال تقدير الحبر الأعظم وأعلى السلطات السياسية والمحافل الثقافية في إيطاليا وأن الجهات المختصة قد اعتمدته رسمياً كنص للتدريس بمعهد الليتشئو الثانوي وبالمدارس الإيطالية العربية في ليبيا غير أن كتابه لم يحظ في واقع الأمر بعمر مديد إذ سرعان ما اختفى عن الوجود.

هذا وإذا كان من المباح الكلام عن عمل الأستاذ عبود أَبي راشد كأول بادرة في مجال الدراسات الإيطالية بليبيا، فإنّه من المباح أيضاً التحدث عن نشاط دارس آخر في المجال نفسه عاش هو الآخر ردحاً من الزمن في طرابلس ولبّى تحت سمائها نداء ربه وأورى ترابها يوم 9/ 5/ 1970. إنه المرحوم الدكتور سعيد داود طوقد مير، الذي ينحدر من أسرة تركية يرجع حضورها في هذا الوطن إِلى نحو مائة وخمسين سنة خلت.

لقد أتم ـ طيّب الله ثراه ـ الدراسة الابتدائية بمدرسة الآباء الفرانشيسكان واستكمل المرحلتين الإعدادية والثانوية بمعهد «ليتشيئو/ جينّاسيو» في مدينة طرابلس. ثم التحق بجامعة روما حيث تخرّج بامتياز من كلية الطب متخصصاً في الجراحة العامة التي أخذ يمارسها، إثر تخرجه، بمسقط رأسه. وفي سنة 1953 كانت عودته إِلى طرابلس التي شهدت له نشاطاً ثقافياً هائلاً إِلى أن وافته المنية. لم يكن الفقيد طبيباً بارعاً فحسب وإنما كان أيضاً إنساناً ذا ثقافة واسعة رصينة وأديباً مولعاً بآثار ليوناردو دافينتشي وملمّاً بعدة لغات عدا العربية التي كان يلم بها إلماماً محدوداً، غير أن أعماله كثيراً ما كانت تحظى بالترجمة إِلى العربية وتنشر بالصحف والدوريات المحلية. كانت حياته حافلة بالنشاط الثقافي كصاحب قلم سيّال وكمحاضر جذّاب قادر على شد قرائه ومستمعيه إليه وانتزاع إعجابهم به. منذ مجيئه إِلى طرابلس سنة 1953 حتى وفاته ظلت الصحف المحلية الصادرة باللغة الإيطالية تنشر مقالاته المتنوعة الشيقة الكثيرة أذكر منها على سبيل المثال «الإسلام في مفهوم لئوناردو» و«المصادر الإسلامية للكوميديا الإلهية» و«أصداء شرقية في معجم صميم لئوناردو دافينتشي».

وفي الختام أود أن أؤكد أن قلة المصادر تكاد تجعل من المستحيل إيفاء هذا الموضوع حقه كما تحول دون الإدلاء برأي قاطع فيه: الأمر الذي أتركه لأولي المعرفة والتخصّص... وفوق كل ذي علم عليم!

المصادر والمراجع

- الأب كوستانتزو بيرنيا ـ طرابلس من 1510 إلى 1850، طرابلس 1934.
- أندريثا فيستا ـ المدرسة الإيطالية وإنجاز الاحتلال المعنوي في ليبيا، طرابلس 1932.
- مجلة ليبيا المصورة ـ بنغازي 1935/ 1938.
- وقائع الندوة الأولى حول «الحضور الثقافي الإيطالي بالأقطار العربية» ـ نابولي 1980.
- مجلة العربي، العدد 226 (شوال 1400هـ/ أيلول 1980م)، ص102: مقال بقلم الفقيد الدكتور عيسى الناعوري عنوانه «الثقافة الإيطالية والعقل العربي».